استتباب الأمن

بعد تأسيس أغسطس للإمبراطورية الرومانية عمد إلى تشجيع وازدهار العبقرية الأدبية في بلاطه فظهر الشاعران فرجيل وهوراس والمؤرخ ليفي Livy في ذلك العصر الذهبي للأدب اللاتيني الذي ظل متألقاً وطغى على المنجزات السياسية. ولم يصدف أن وجدت أي تجمعات من العبقريات المشابهة تحت حكم أي حاكم أتى بعد أغسطس حتى استلمت السلطة آخر أسرة قبل أن تعم الفوضى في الإمبراطورية وقبل تغير معالمها وإن أغسطس لو رجع لما تعرف عليها، ولقد أخر سبتموس سيفيروس ذلك الانهيار السياسي الذي أوشك أن يقع. وأما زوجته جوليا دومنا فقد رعت شمس الفنون والعلوم المائلة نحو الغروب.

كانت العلوم أكثر حظاً من الفنون. فالمنجزات الأدبية للكتّاب الذين كانوا يؤمون حلقة جوليا الأدبية كانت من ذات صفات غثة منحدرة بالنسبة لما كانت عليه زمن أغسطس. فقد انحط الأدب اللاتيني من العصر الذهبي إلى العصر الفضي وحتى الفضة قد نسخت وحل محلها مقاييس من معادن أقل قيمة وأبخس ثمناً. فمعظم أصدقاء جوليا كانوا يكتبون اللغة اليونانية ولكن مستوى إنجازاتهم لم يصل إلى المستوى المطلوب. فقد كان هَمُّ الأدباء هو الأسلوب والبلاغة والمحسنات اللفظية التي كانت هي المحك والموجب لشهرة الأديب وتقريظه بغض النظر عن المعنى والمضمون، وكان من العادة اقتراح وطرح موضوع ما أمام أولئك المتأدبين المتكلفين الذين كانوا يولون ولاءهم ويمارسون مهارتهم وتنافسهم.

وكان أحد هؤلاء المتأدبين من أصدقاء جوليا فلافيوس فيلوستراتوس Flavius Philostratus وهو أحد مواطني جزيرة ليمونس Lemons ويتكلم اليونانية. وقد ارتكزت شهرته على عمل ألفه بناء على رغبتها وهو حياة ابوللونيوس Apollonius وهو الذي عبر عن أفكار جوليا في علم الأخلاق والدين. وهو يخبر قصة رجل يدعى ابوللونيوس من الحكماء والسحرة، طاف في عدة أجزاء من العالم من بلاد الفرس إلى الهند إلى الحبشة ينشر الدين ويلاحظ ويضع من نفسه مثالاً للسلوك القويم، ولم تكن مادة الكتاب خيالية بالمعنى الصحيح. فقد كان ابوللونيوس رجلاً حقيقياً عاش في أواخر العصر الأول الميلادي وقد عرفت كثير من تفاصيل حياته في القصص المعاصرة ولكن لم تكن الدقة التاريخية

لفيلوستراتوس لتؤثر في سبك ذلك الكتاب كما أثر الأسلوب الأدبي الرفيع والمضمون التعليمي والتثقيفي العالي. ويعتبر الكتاب تسجيلاً للمبادئ التي اهتمت بها جوليا بغض النظر عن كون ذلك الكتاب قد رسم لنا صورة حقيقية عن رجل قديم منسي عمل في صنع العجائب.

وفي الأزمنة التالية اتخذت بعض الترتيبات لجعل هذا الكتاب بديلاً عن الأناجيل المسيحية واعتبار ابوللونيوس نفسه مسيحياً وثنياً. ولكن فيلوستراتوس نفسه لا يقدم لنا أي تأييد لهذه الفكرة، فلا نجد فيه أي أثر للتنافس المذهبي والديني. إذ بينما لا نرى فيه أي ذكر للمسيحية إلا أنه يصر على القول بوجوب احترام جميع الأديان. وقد كانت الأناجيل المسيحية التي انتشرت بشكل واسع في ذلك العهد معروفة تماماً بالنسبة له ولا يخلو كتابه من مقاطع تردد بعض أفكار تلك الأناجيل، إذ عندما يعيد ابوللونيوس الحياة إلى فتاة قد ماتت في يوم زفافها تذكرنا تلك الحادثة بالمعجزة التي أنجزها السيد المسيح بإعادة ابنه جيروس Jairus إلى الحياة. ويمكننا أن نلمس ترديداً آخر لأفكار الأناجيل، وذلك عندما يأتي ابوللونيوس بشكل سحري لموافاة أصدقائه وتلاميذه في كهف جنيات البحر ويطلب منهم أن يلمسوه ليتأكدوا أنه هو ذاته وليس شبحه الذي أتى لهم، مع أنه كان محجوزاً في السجن ينتظر محاكمته التي أودت بحياته أمام الإمبراطور دوميتانوس Domitian. وتذكرنا كلماته بكلمات المسيح الذي رجع من الموت «المسوني لتروا، فالروح ليس فيها لحم وعظام كما تروني». وليس هنالك من حاجة لذكر الدوافع الخفية لفيلوستراتوس، فهو يقصد المجاملة عندما يستعير التقاليد المسيحية. فقد كان الأدباء في عصره ينظرون إلى أفكار الرجال الآخرين كحديقة مفتوحة للجميع ويجوز لأي شخص أن يقتطف أي زهرة تروق له ليزين بها أعماله.

لقد كتب كتاب حياة ابوللونيوس للتسلية فضلاً عن التثقيف، فقد كان جمهور الشعب الروماني يستمتع بقراءة العجائب من هذا النوع مثل قصة البنت المتعددة الألوان التي وجدت في الهند، فقد كان الجزء العلوي من جسمها أسود وكذلك وجهها وثدياها، وأما الجزء السفلي من جسمها من خصرها حتى قدميها فكان أبيض اللون. فقد كانت الفتيات الهنديات اللواتي يشبهن هذه مقدسات بالنسبة للآلهة افروديت. وإنه يعود للروح العلمية فيصف قطيعاً من الفيلة يعبرون نهراً ولكن الفيل الصغير كان في المقدمة والكبير في المؤخرة، حتى إذا ما بدا النهر عميقاً فلا يستطيع الصغار خوضه رجع الكبار حالاً للتفتيش عن مكان آخر يخوضون فيه النهر. فهو لا يستطيع أن يقاوم ذكر قصة جيدة ولو كان ذلك على حساب البطل، إذ عندما يحاول ابوللونيوس دخول جسر فوق نهر الفرات يسأله موظف الجمارك ماذا في حوزته في أمتعته فيجيبه مدلياً بعدد لا بأس به من الأسماء التجريدية المعنوية: الاعتدال، العدالة، الفضيلة، الصبر. وكل هذه الأسماء مؤنثة

في اللغة اليونانية، ولكن جواب الموظف كان: «يجب أن تستحصل على إذن بالدخول لهؤلاء البنات».

لقد كانت القصص من هذا النوع بمثابة التوابل لفتح شهية القارئ لهضم تعاليمه، ولكن كثيراً من تعاليمه كانت عسرة الهضم كالدعوة إلى الزهد والتقوى. ولكن نجد من آن لآخر بعض الأفكار التي لا شك أن أصلها من إيحاء جوليا ونرى روحها ونفسها في القول إن العناية الإلهية موجودة في الروح الإنسانية وليس في الهياكل والمعابد. وحتى تعاليم الزهد والتنسك التي تطلبها التقاليد من المتيقن قد عُدِّلَت بحيث تناسب طبيعتها المتسامحة والمحبة للبهجة والسرور والحياة. فعندما يجلس ابوللونيوس مع تلاميذه للتمتع في نزهة بجانب جدول ماء ويقدم لهم بعض البدو المارون خمراً مصنوعاً من التمر يرفض ابوللونيوس نفسه شرب الخمر، ولكنه يشجع الباقين على شربه ويعلن لهم أنهم ما داموا لم يبلغوا منزلة الفلاسفة فلا ضرورة لهم للامتناع. وفي مناسبة أخرى يؤكد هذه النقطة بشكل أقوى عندما يخبر ملك الفارسيين أن التزمت يجعل الملك يبدو سوقياً ويفقد شخصيته». وهنالك رغبة واحدة يعتبرها غير موافقة، فيقول إنه يمكن أن نغتفر للإنسان خلوده للكسل والغضب والرغبات الجنسية ومعاقرة الخمر ولكن إذا جعلت همك الامتلاك وجمع المال فهذا خطأ لا يغتفر، وهو يؤلف مجموع الأخطاء متلبسة في خطأ واحد. وعندما يتفاخر أحد الأغنياء الجدد بثروته وبيته الذي بناه في جزيرة رودس وما صرفه على هذا البيت من أموال يخبره ابوللونيوس «يبدو لي أيها الشاب أنك لست أنت مالك هذا البيت بل البيت هو مالكك».

ومع أن وفاة جوليا حدثت قبل إنهاء الكتاب ونشره، إلا أن فيلوستراتوس يصرح أن ذلك الكتاب قد كُتب بالتشاور معها وقد حاز على رضاها وتشجيعها. وهذا الكتاب يعوض عن افتقاره للقيمة الأدبية بما يقدم من ومضات لا توجد في أي مكان آخر، بل في عقل امرأة أدت دوراً بارزاً في فترة حاسمة من التاريخ الروماني والتي كانت مجهوداتها لو قدر لها النجاح، كانت ستعمل على إحراز الوحدة والاتحاد الديني في جميع أنحاء الإمبراطورية محبطة بذلك انتصار الديانة المسيحية. فلم تكن هي مسيحية بنفسها فقد حدثت بعض الاضطهادات للمسيحيين زمن زوجها كانت نتيجة لنشوء شعور من الحقد لدى بعض الضباط في الولايات والتي لم يرغب الإمبراطور فيها أو لم يستطع كبحها. ولكن هذا الحقد لم يكن موجوداً لدى جوليا فقد كانت المرضعة التي استخدمتها في لوجدونيوم لتربية ابنها الأكبر أول مسيحية تبعها الكثيرون من المسيحيين الذين أدخلتهم في خدمتها. فقد تبعت مثل مارشيا في حكم كومودوس فقد كانت حامية وثنية لأتباع المسيح. والحقيقة أنه لم يكن من الموافق لطباعها وأخلاقها وهي ذات الأفكار والذهن المتوقد والمتفتح لمعرفة كل جديد ألا تدرس التعاليم المسيحية وتختار منها ما يلائمها.

هنالك قصة وردت في حياة ابوللونيوس تشير إلى الدين الذي كان هذا العمل مديناً به للأناجيل (العهد الجديد) فعندما يزور ابوللونيوس البلاط الفارسي يرسل الملك خادماً إلى مكان إقامته ليخبره أنه سوف يهديه عشر هدايا يختارها هو بنفسه. ويشجعه الخادم بقوله إن الملك يتوق لإظهار كرمه وعطاياه، ولذلك فسوف يشعر بالإهانة والخيبة إذا لم يكن الاختيار يليق بعظمة الملك في نفاسته وقيمته. وهذا ما يوقع ابوللونيوس في الحيرة، فإذا كان يرفض الثروات المادية فلا يجب أن يقبل أي شيء أبداً ولكنه بالوقت نفسه لا يجب أن يكون سبباً لتعكير صفو الملك وإهانته الأمر الذي سوف يهدد زيارته بالفشل.

وكان تنفيذ الوعد سيتم في اليوم الثاني وبينما كان يقلب النظر في وجوه تلك المشكلة طوال الليل يتذكر أنه وهو في طريقه من نقطة الحدود إلى العاصمة مر عبر بعض القرى التي كان سكانها من اليونان، وهم من أنسال بعض المساجين الذين أسرهم داريوس في الحروب القديمة بين الفرس واليونان، وأن هؤلاء قد شرحوا له الصعوبات التي يعانونها في حياتهم وهم يكدحون للحصول على معيشتهم في أرض تفوح منها رائحة البترول مع إزعاج ونهب جيرانهم لهم، فهم لا يزالون مُحتَقَرين بعد كل تلك القرون التي مضت عليهم ويُعتبَرون غرباء. وفي الصباح التالي يذهب لرؤية الملك الذي يسأله فيما إذا كان قد اختار الهدايا التي يريدها.

«إنني اختار هدية أثمن من جميع الهدايا» ثم يخبر الملك عن أحوال أولئك اليونانيين المضطهدين ويطلب أن يعيد الملك إسكانهم في أرض طيبة ويحميهم من تدخل الآخرين. وقد سر هذا الطلب الملك الذي لا يرى فيه فرصة لإظهار ثروته وقوته فحسب، بل عطفه وكرمه بالنسبة لجماعة من القدماء الذين لم يعودوا أعداء. ولكنه يذكر ابوللونيوس أن هنالك تسع هدايا عليه أن يختارها.

فأجابه ابوللونيوس: «انتظر حتى تطول مدة إقامتي في بلادكم، إذ لم يتح لي الوقت الكافي بعد لاستخلاص أصدقاء أوفياء جدد».

لقد كان فيلوستراتوس حائزاً على المركز الأول في تلك الحلقة الأدبية التي كانت ترعاها جوليا، ولكنه كان مديناً في هذا المركز لقيم خارجة عن نطاق الأدب؛ أي لتلك الأفكار التي تعكس ما في عقل جوليا وتجد لها متنفساً وتعبيراً في حياة ابوللونيوس، وللصور الرائعة التي صورها لأسلافه ومعاصريه في كتابه «حياة المتأدبين» ولم يحصل أي كاتب وصلت إلينا أعماله على اهتمام كالاهتمام الذي حظي به فيلوستراتوس، فقد ذبل وذوى التقليد الخلاق وحل محله تقليد منجزات الماضي، فالقصيدة الطويلة سواء كانت بطولية أو تثقيفية أو تعليمية كانت نموذجاً يعمل على الإيحاء بالعبقرية، عبقرية هوميروس وهيسرود في اللغة اليونانية وعبقرية الإلياذة Aeneid وجوريكس Goerics في فرجيل في الأدب اللاتيني، ولكن تلك العبقرية فقدت نجاحها عندما سُلمت إلى أوبيان Oppian ابن ذلك الفيلسوف الذي أزعج سبتموس سيفيروس برفضه حضور الاحتفال بالنصر

بعد القضاء على نيجر في معركة (اسوس) فقد كتب (أوبيان) هذا قصائد طويلة باللغة اليونانية إحداها تؤلف خمسة كتب عن صيد الأسماك. والأخرى في أربعة كتب عن الصيد بصورة عامة وقد مدحها الأدباء المعاصرون ولاسيما كتاب الصيد، وعندما أصبح ابن جوليا إمبراطوراً كافأ ذلك الشاعر بمنحه قطعة من الذهب عن كل بيت من الشعر وبلغ مجموع القطع الذهبية ألفي قطعة، ومع أن هذه القصيدة لا تزال موجودة ومقروءة في هذه الأيام إلا أنها أوفر حظاً من كثير من الآداب الكلاسيكية القديمة التي لا تجذب إلا القليلين من القراء.

وهنالك الكاتب المتأدب ايليان وهو من الكتاب الذين كانوا يتكلمون اللاتينية، وقد ولد في إيطاليا وأصر على الكتابة باللغة اليونانية وقد سماه اليونانيون «ذا اللسان الحلو». وإن مجموعة القصص التي جمعها حول طبيعة الحيوانات تقدم لنا أسماء حيوانات غريبة حتى في هذه الأيام كالحيوان المدعو مانتيشور Mantichore وهو وحش أشعث خشن الوبر أحمر الشعر بحجم الأسد وله وجه يشبه وجه الإنسان. وطائر الجريفون Gryphon الذي كان يعيش في باكتريا Bacteria وله أربع قوائم مع منقار يشبه منقار النسر وجسمه مغطى بالريش الأسود في الجهة العليا والأحمر من الأسفل وجناحاه بيضاوان وهو يبني عشه من غبار الذهب. وعن بعض الرجال الذين تشبه وجوههم وجوه الكلاب ويتكلمون بشكل زعيق، وكذلك عن ثعبان الامفيسبانيا وهو ثعبان له رأسان ويستطيع التحرك بالوقت نفسه في اتجاهين متقابلين. وقد كانت جوليا وأصدقاؤها تهوى سماع العجائب والغرائب وكانت تصدق كل ما يروونه عن هذه الحيوانات عندما لم يكن الناس قد اكتشفوا جزءاً كبيراً من هذا العالم.

لم تكن جميع قصص ايليان صادقة. فقد أخبر عن دولفين أُمسك في شبكة وأحضر إلى جزيرة باروس Paros ليباع مع بقية الأسماك التي اصطيدت. وقد تدخل بعض رجال الجزيرة ودفع ثمن الدولفين ثم أطلق سراحه. وبعد وقت قصير كان هذا الرجل في إحدى السفن وأوشكت السفينة على الغرق، فما أحس هذا البحار إلا وأنه أصبح في قعر البحر في الأعماق وحالما أوشك على الغرق والموت فإذاً بالدولفين يظهر مسرعاً وقافزاً نحوه من بعيد وقد غطس هذا الدولفين تحته ورفعه وحمله على ظهره إلى الشاطئ بسلام، وقد سجلت كثير من الحوادث من هذا النوع عن هذه الحيوانات وقد وصفها ايليان Aelian في قصيدة تدعى حيوانات جنيات البحر المدللة.

لا نستطيع أن نعد أي واحد من الكتاب المذكورين أعلاه كاتباً أو أديباً موهوباً. ولكنَّ أي شخص يرغب في وصف هذا العصر بالانحطاط بالنسبة للآداب عليه أن يتذكر أنَّ أبوليوس Apuleius كاتب الرواية الرومانسية التصورية المدعوة ميتامورفوسيس (Metamorphoses) أو الحمار الذهبي يعتبر كاتباً عبقرياً،

وكان من رجال هذا العصر وكان يعيش في شمال أفريقيا في ذلك الزمن وقد بلغ السبعين من العمر. ويضم كتابه سلسلة من القصص الهزلية الداعرة المثيرة، ولكنه حَوَّل هذه القصص إلى قصة واحدة تتجسد في الشخصيات الحية المفعمة بالأهداف الدينية العميقة، وهي تعتبر أساساً ومصدراً للروايات الحديثة في الوقت الحاضر. وإن العصر الذي أنتج هذه القصص لم يكن ليصيبه الخجل لإنجازها، فمع أن سبتموس سيفيروس نفسه كان إفريقياً، لكن لم يذكر أحد أنه تقابل مع ابوليوس أو تعرف عليه والاحتمال بعيداً جداً من أن تكون جوليا قد قابلته أو تعرفت عليه أيضاً بعد أن أصبح شيخاً كبيراً في السن وفيلسوفاً، قضى معظم السنوات الأخيرة من حياته في قرطاجة[1] ولكن يمكننا الافتراض دون أدنى شك أنها قد قرأت أعماله ووجدت فيه مساعداً لها ومؤيداً للانتعاش الأدبي الذي كانت هي راعيته.

لم يكن الأدب هو الاهتمام الوحيد الذي شغلها وجذب انتباهها. فقد اهتمت هي وأصدقاؤها بشكل متساو إن لم يكن زائداً عنهم، في مسائل الفلسفة وعلوم الطبيعة. وقد كان معظم الناس في ذلك العهد يذكرون عندما حكم الإمبراطورية فيلسوف يدعى ماركوس اوريليوس. فالمبادئ الرواقية التي كان يدين بها ماركوس اوريليوس اهتمت بتنظيم الإدارة ولكن هذه التعاليم كانت بعيدة عن مجال التأملات الدينية التي جذبت جوليا، ولكن ما آمن به ذلك الإمبراطور الرواقي أصبح نوعاً من الطراز والموضة السائدة عملاً بالقول (الناس على دين ملوكهم) وبدأت الفلسفات التابعة لكل المدارس الفلسفية تزدهر في السنوات التالية، وكان أبرز هؤلاء الفلاسفة: غالين Goelen الذي أصبح رجلاً مسناً عند تولي سبتموس السلطة ومات في آخر عام من أعوام ذلك القرن ولكن ورود اسمه دليل على أن جوليا اهتمت بكل شيء.

اشتهر غالين في التاريخ الطبي بمعرفته الدقيقة بعلم التشريح ووظائف أعضاء الجسم المختلفة وقد كان طالب فلسفة فضلاً عن كونه طالب طب وأسس أفكاره وأعماله على المبدأ الذي يقول إنه لا يجوز قبول أي شيء واعتباره صحيحاً ما لم يُختبر عن طريق العقل والتجربة. ورويت عنه قصة تؤكد رفضه التقيد بسلطة التقاليد فقد مرض أحد أصدقائه ولم يكن غالين طبيبه، بل كان طبيبه شخصاً آخر أعطاه بعض العلاج الموصوف في كتب الطب ونصحه بالخلود إلى الراحة في فراشه وأنذره ألا لا يأكل إلا القليل. ولكن غالين زار

١- إن كلاً من سبتموس سيفيروس وأبولونيوس يعودان في أصولهما لقرطاجة وللفينيقيين ذوي الأصول العربية.

صديقه مرة للاستفسار عن صحته فوجده في حالة يرثى لها من الضعف، ولهذا عمد غالين إلى تجاوز نصيحة الطبيب الآخر بقوة ربما لا تستسيغها التقاليد الطبية في هذه الأيام وأصر على المريض أن ينهض من فراشه ورافقه إلى الهواء الطلق، حيث جلسا وتناولا وجبة دسمة من الطعام. وهكذا تحسنت حالة الرجل وشفي بسرعة. ولا يعرف شيء عن الأعراض التي لاحظها غالين والتي جعلته يعطي هذه التوصية، ولكن نجاحه كان مؤسساً على الاعتقاد الذي سجله هو بنفسه بقوله: «إن كل من يرغب في فهم أعمال الطبيعة، عليه ألا يضع ثقته في كتب التشريح ولكن في عينيه وبصيرته».

ولكن للأسف بدأ الزمن يقترب من تلك الفترة حين أصبح عكس هذه الاعتقادات والتجارب سائداً ويحكم كل مجال من مجالات البحث. فابتداء من القرن الرابع الميلادي فصاعداً وأثناء ألف عام أصبح البحث عن الحقيقة يعتمد على السوابق الفارغة المضمون وعلى احترام مبادئ أكل الدهر عليها وشرب[1] وقد كان صوت غالين هو آخر صوت صرخ في العالم القديم باحثاً عن الحقيقة بقوله: لماذا حدث ذلك وكيف حدث ذلك. باحثاً عن جواب يستقيه من الملاحظة والعقل، بغض النظر عما قاله أي شخص آخر مهما كان هذا الشخص عظيماً أو ذا مقام مرموق. وقد شملت أعماله عدة مجالات فضلاً عن مجال الطب، وعندما يطبق أساليبه على الدين يمكننا أن نرى تطابقاً واضحاً مع آراء جوليا.

وكان بين الأشخاص المتعلمين الذين كانوا يؤمون البلاط الإمبراطوري والذين كانت منجزاتهم جديرة بالاهتمام. فقد كان حكم سبتموس سيفيروس هو العصر الذهبي للتشريع الروماني كما كان عصر أغسطس بالنسبة للأدب، ومنذ تأسيس الإمبراطورية كانت العادة تعيين عدد مناسب من المختصين بالقانون يرجع إليهم القضاة ويستشيرونهم وكانت أجوبة هؤلاء تعتبر قاطعة حاسمة تدعمها القوة الإمبراطورية. وبعد زمن طويل جمعت هذه الفتاوى في زمن جوستنيان وعرفت باسم المختارات من القانون الروماني. وقد اقتبس هؤلاء كثيراً من أقوال وفتاوى بابنيان Papianian ابن عم جوليا وأحد أصدقائها المخلصين. وتظهر قيمته العقلية في غزارة علمه وقيمته الأخلاقية بدماثة طباعه عندما كان يعبر عن اختلافه في الرأي مع الآخرين وقد وصفه بعضهم أنه كان أعظم مستشار قانوني في زمنه.

١- تقصد الكاتبة عصور الانحطاط في الغرب.

والعمل الذي اشتهر به بابنيان Papinian وتلميذه الأقل شهرة منه (اولبيان) Ulpian أنهما وضعا بصمات إنسانية على القانون الروماني الذي كان قد وصل إلى درجة لا بأس بها من التقدم قبل زمنهما. فهما لم يخترعا أشياء جديدة بل عملا الكثير في سبيل توسيع وتسهيل فهم القوانين لاسيما ذلك المبدأ للحقوق الطبيعية للإنسان اللازمة في الطبيعة الإنسانية والتي قد أقرها العقل. وقد عملت الأفكار الجديدة التي قدموها على حماية الضحايا والمظلومين من الظلم والاستبداد، وعلى تقييد سلطة الوالد على أبنائه، وعلى تقييد سلطة السيد على حياة وأملاك عبيده، وعلى تقييد السلطات المركزية على الولايات، وقد تم ذلك التغيير بواسطة تشريعات جديدة بدلاً من إعادة تفسير القوانين القديمة، وبذلك حصل تعديل لتلك القوانين على ضوء العدل والمساواة. ففي هذا العصر من أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة أصبحت القيم الإنسانية والشعور الشخصي تتمتعان باعتبار عظيم يزيد عما كان عليه الحال في أي زمن من أزمنة العالم القديم والتاريخ القديم.

هنالك عدة أسباب يمكن أن نجدها لتفسير تلك الخصوبة العقلية والحدة الفكرية التي امتاز بها عصر سبتموس سيفيروس؛ إذ يمكننا اعتبار ذلك العصر، الوقت الذي آن الأوان به لحصاد الازدهار والرخاء العقلي الذي بدأ في عصر الأنطونيين.

ومع ذلك فإن حصة الأسد في الفضل ترجع إلى الدور الذي أدته زوجة الإمبراطور الأوغستا Augasta وهي جوليا في هذا المضمار بذلك التشجيع الذي أظهرته للرجال الموهوبين وتمتعها بصحبتهم ويمكننا أن نسأل ماذا كان شعورهم تجاه حاميتهم الإمبراطورة، فهل كانت هي مجرد موزعة للأموال والهبات والتفضيل والتي كانوا يعتمدون على تشجيعها في الحصول على الجوائز أم كانت هي نفسها أيضاً مصدراً من مصادر الإلهام، وليست مجرد رئيسة مفروضة نظراً لعلو مرتبتها، بل إنها قادرة أيضاً أن تضيف إسهامات جديدة من لدنها، تلك الإسهامات التي كانت ثمرة عقل نير متشرب ومشبع بتعاليم معبد حمص، وبسحر يفرضه جمال وجهها وقوامها، وبعطف وحنان يزيدان في ذلك السحر؟ ولقد كتب عنها صديقها فيلوستراتوس في زمن متأخر كلمات يمكننا اقتباسها هنا. فتلك الكلمات كانت موجهة إلى ابنها بعد أن استلم السلطة وأصبح مسؤولاً عن الحوادث التي سوف نصفها في حينه والتي سببت إظلام حياتها وصبغها بالمأساوية فقال: «لن يعود طائر اللقلق إلى المدينة التي خربت، فهذه الطيور تتجنب سماع صدى الجرائم التي اجترحت، ولكنك لا تزال تعيش في ذلك البيت الذي كان خرابه من صنع يديك وأنت تعبر بشفتيك فقط عن استعدادك لخدمة تلك الآلهة الموجودة في البيت وكأنها غير موجودة أو إنها تستطيع أن تنسى أنك قد امتلكت كل ما كان لها».

إن هذه الرموز تشير إلى ذلك الحزن المكتوم الذي يحن فيه المؤلف إلى فردوسه المفقود. فالآلهة الغضاب ما هم إلا العظمة والذكاء والعقل الذي كان الملهم لتلك الأحاديث أثناء العشاء في غرف جوليا وفي قصرها، أو في حدائق ذلك البيت الريفي الذي كانت تلجأ إليه الأسرة الإمبراطورية على شاطئ كامبانيا، حيث كانت جوليا نفسها تجلس وهي ملفوفة بالورد وحولها الأصدقاء الأوفياء والشعراء والفلاسفة في ظل الرواق الرخامي البارد المضمخ بالعطور فوق زرقة البحر اللازوردي.

كانت التقاليد الرومانية تلزم سيادة الذكور على الإناث. حتى عصرها المفعم برعاية الفنون لم يخل من التعصب، فاتهمها أعداؤها وعرضوا بسمعتها بصفتها امرأة سورية واتهموها بممارسة المغامرات الشهوانية تحت غطاء الاهتمامات العقلية والعلمية، وقد زاد في حدة حقدهم توجهها نحو الشؤون السياسية وكانت تحتاج للتعقل والحكمة لإخفاء الدور الذي كانت تؤديه أثناء حكم ابنها الذي ترك لها تصريف كثير من الشؤون الإدارية في الدولة. ولقد اكتفت بممارسة حقيقتها من وراء الستار ودون إظهار قوتها ولكنها تذكرت بكل أسى وأسف أعمال ومغامرات سيميراميس ملكة بابل.

وفي أثناء حياة زوجها كانت تتجنب النشاطات السياسية، فلم يكن يرغب أن يقاسمه أحد عبء تصريف شؤون الدولة وقلما قدمت له أي نصيحة، وقد رافقته في سفره عندما ترك روما في خريف عام 197 لاستئناف حملته التي قطعها في ما بين النهرين، وكانت قد مرت بضعة أشهر على انتصاره على ألبينوس Albinos ولكن سلطته كانت قد توطدت بشكل متين وإنه لم يعد هنالك من حاجة لبقائه في روما للتأكد من ذلك، فقد ملئت جميع الوظائف برجال من مؤيديه وأصبح مجلس الشيوخ أداة طيعة في يده بعد تطهيره، وكان الأساس المتين الذي رست عليه ثقته هو الآمال العظام التي كانت تدغدغ عقول الناس في كل من روما والولايات بإعادة النظام والحكومة المستقرة، بحيث أصبح كل إنسان يود إثارة حرب أهلية يحسب ألف حساب للرأي العام أولاً.

لقد واجه سبتموس مقاومة ضئيلة في هذه الحملة لا تزيد عن الحملة السابقة فالملك الفارسي كان في شغل شاغل لمعالجة العصيان بين صفوف رعاياه الفرس، ولم يكن راغباً في إرسال أي قوة للدفاع عن خطوط الحدود البعيدة. وقد بنى سبتموس بعض القوارب التي شكلت أسطولاً لنقل معظم رجاله ومؤنه من نهر الفرات إلى نهر دجلة بواسطة قناة قديمة تسمى القناة الملكية التي تعزو الخرافات بناءها إلى نبوخذنصر. وبعدها قاد بقية الجيش بنفسه إلى بابل التي لم تعد بابل العظمى سيدة العالم بل شبحها وخرائبها التي ظلت أيادي النهب والسلب تعمل في حجارتها لتأمين المواد اللازمة لأبنية أخرى في أمكنة أخرى. وقد وجد أبوابها مفتوحة فدخلها دون أي مقاومة، بعد أن فقدت بابل أهميتها العسكرية ولكنه كان يهوى النظر إلى الآثار القديمة، كما

كانت حالته في أيام شبابه عندما نفاه كومودوس إلى أثينا وأخذ يتسلى بالنظر إلى الفارشينيون والأنصاب الأخرى القديمة في اليونان. وأما جوليا فقد كان لها اهتمام خاص بزيارة بابل وهي موطن العلوم التنجيمية الكلدانية التي كان دينها الأصلي قد أخذ منها الكثير. ولم تجد بابل مهجورة تماماً. فقد كانت مركز أحد الحكام الفارسيين المحليين ووجدت أن المعبد القديم لا يزال ماثلاً وهو معبد جوبتر بيلوس Jupiter Belus (وهو الاسم الروماني لزعيم الآلهة البابلية) وقد سحر فيلوستراتوس الذي حافظ على مرافقتها لرؤيته الجسر السري تحت النهر، وهو طريق سفلي يصل القصور الواقعة على ضفتي النهر المتقابلتين ويصفه في كتابه حياة ابوللونيوس. ومن بابل عبر الجيش الروماني الأرض المتوسطة بين النهرين ووصلوا إلى سلوقية على الدجلة، وقد أسس هذه المدينة سلوقس وهو أحد قواد الاسكندر وسماها باسمه لتكون عاصمة حصته من إمبراطورية الاسكندر الكبير. وهنا وافته القوة التي نقلتها القوارب من الشمال عبر القناة الملكية. وعلى الضفة المقابلة للنهر مقابل سلوقيه وقفت مدينة اكتسيفون Ctesiphon الفارسية التي كان ملك فارس قد اتخذها عاصمة له عندما كان في هذا الجزء من إقليمه. وكان من عادة البارسيين عندما يستردون ما بين النهرين من اليونان أن يسكنوا في عاصمة خاصة بهم بدلاً من سكناهم في مدينة الحكام اليونانيين، فقد كانوا يشعرون بالضعة بين الأبنية الفخمة ووسائل الرفاهية في سلوقية وكانوا واعين إلى أن ملابسهم الغريبة وعاداتهم سوف تنفر التجار وتعيق تقدم الحياة في المدينة التي كانت تعتمد في رخائها على التجارة. وقد ظلت سلوقية مدينة يونانية تواجهها مدينة اكتزيفون عبر النهر وهي معسكر البارسيين وكانت الفروق بين المدينتين عند وصول سبتموس أقل منها في السابق إذ إن سلوقية كانت قد تهدمت في معظمها لأن الرومان قد خربوها وهدموها قبل ثلاثين عاماً أثناء حكم ماركوس اوريليوس.

لم تحدث أي مصادمات حتى الآن وقد سار سبتموس قدماً في ما بين النهرين ولكن قام البارسيون في اكتفون بمحاولة جدية لإيقافه. كان ملكهم فولوجايسيس Vologaeses حاضراً شخصياً في المدينة وقد تحول من إخضاع خصومه في الداخل إلى مقارعة الرومان في سيرهم السريع داخل بلاده. ولكن قواته لم تستطع الصمود أمام سبتموس الذي يملك أسطولاً من القوارب استخدمه رجاله للعبور إلى الضفة الأخرى. وهكذا سقطت اكتسفون وهرب الملك. ومع أن المدينة لم تكن أصلاً أكبر من معسكر لقوم رحل، إلا أنها أصبحت مستوطنة لا بأس بها مع مرور الزمن تخدم البلاط الملكي البارسي عند اللزوم. وهكذا نهبها الجنود الرومان مع ذبح السكان المدنيين ولم يستطع سبتموس عمل شيء لإيقاف جنوده ومنعهم عن هذه الأعمال، فقد قاسوا كثيراً في حملتهم ولاسيما في أول عهدهم ومنعهم عن هذه الأعمال فقد قاسوا كثيراً

في حملتهم وخصوصاً في أول عهدهم بها وعمل مرض الديزونتاريا على تفاقم حالتهم الصحية ونقمتهم.

ساعد نهب اكتزيفون على رفع روحهم المعنوية كما يفعل سيد كلاب الصيد في نهاية يوم خلا من الصيد بأن يفرم لحم أحد الثعالب لتتذوق كلابه طعم الدم.

سقطت اكتزيفون في 28 كانون الثاني عام 198 وهو ذكرى مرور مئة عام على تولي الإمبراطور تراجان السلطة. وكان سبتموس يفخر بأنه كان يكمل أعمال تراجان الذي أتى لفتح منطقة ما بين النهرين ولم يحل بينه وبين ذلك إلا موته. وللاحتفال بهذه المناسبة دعا جنوده للمناداة وتسمية ابنه الأكبر انطونيوس باسم اوغسطوس، والأصغر جيتا باسم قيصر. وكان الولد الأكبر لم يبلغ العاشرة من العمر بعد والأصغر لم يبلغ الثامنة وقد وضح للجميع أن الأب يرغب في تأسيس أسرة مالكة تعتمد في تسلسلها على الدم وليس على التبني كما كانت العادة زمن الأنطونيين.

ورغم السهولة التي ربح فيها الرومان المعركة إلا أنه لم تُبذل أي محاولة لمطاردة فلول الجيش في أعماق بلاد فارس، بل إن سبتموس قفل راجعاً إلى بلاده على رأس جيشه وقد اختار الطريق الأطول على ضفاف دجلة. وكانت أسباب عدم تقدمه في بلاد الفرس أن هدفه من تلك الحملة كان الاستيلاء على مابين النهرين وليس مد حدود الإمبراطورية شرقاً. ومع ذلك فلم يكن ليستنكف عن إنزال ضربة قاصمة في الساسانيين الضعفاء لو كان لديه ثقة أكبر بصلاحية جنوده وبكفاءته الشخصية في قيادتهم. فلقد كانت خبرته العسكرية تنقصها الفرص المواتية التي توقفت بعد تعيينه والياً على بانونيا العليا، وحتى الآن كان عليه تعلم الكثير من تلك الفنون العسكرية التي تفوق بها في أواخر حكمه وهي إشاعة النظام الصارم في الجيش وبالوقت نفسه إثارة روح الولاء والإخلاص في كل جندي من جنوده.

تفاقمت حالة الجند في رحلتهم إلى الوطن عندما تحول سبتموس لحصار بلدة هاترا Hatra وهي مدينة تحتل واحة في الصحراء في منتصف المسافة بين دجلة والفرات وكانت تؤيد نيجر أثناء حياته وتصر على تحدي الإمبراطور الجديد. وقد تعثر الحصار. فالمدينة كانت محصنة تحصيناً قوياً واستعمل المدافعون عنها الأسلحة التقليدية بالإضافة إلى البترول المنتج محلياً والذي كانوا يحرقونه ويلقون به فيشكل سائلاً ملتهباً على العدو، وأخيراً أحدث الرومانيون خرقاً في السور واندفعوا إلى الأمام وكانوا في غاية السرور عندما رأوا أمامهم في الموضع الذي خرق فيه السور معبد إله الشمس المملوء بالكنوز والذهب.

وقف سبتموس يراقب من منصة قريبة، وفجأة أمر نافخي الأبواق بالنفخ إنذاراً بالانسحاب وقد سمع الجنود أصوات الأبواق فنزلوا على مضض إطاعة لأمر الإمبراطور وهكذا أنقذ المعبد.

وكان تفسير سبتموس لهذا الانسحاب أنه كان يتوقع عرضاً بالتسليم من أهالي المدينة فسحب جنده انتظاراً لهذا العرض، ولكن مر يوم وهو لا يزال منتظراً ولم يأت أي رسل من المدينة حيث كان رجالها مشغولين في إصلاح الخرق في السور. وأخيراً أصدر سبتموس الأمر بالهجوم مرة ثانية ولكن أفضل رجاله وهم رجال فرق الحدود الأوروبية الذين أغاظتهم خيبة الأمل التي منوا بها أخيراً، رفضوا التحرك والوحدة العسكرية الوحيدة التي رغبت في الانصياع لأمر الإمبراطور كانت من المتطوعين من القبائل المحلية وهم من أعداء هترا Hatra التقليديين، ولم يكن هؤلاء بكفاءة المدافعين الذين قضوا عليهم، عندها عرض أحد الضباط احتلال المدينة إذا سمح له الإمبراطور باصطحاب خمسمئة وخمسين رجلاً من الجنود الأوروبيين لدعمه.

فأجابه الإمبراطور: يسرني لو استطعت أن أقدم لك خمسة فقط.

حدثت اجتماعات غاضبة في الجيش للاحتجاج وألقيت الخطابات التي تدحض تدخل الإمبراطور في شؤون الجنود في ساعة النصر عندما كانوا على وشك الاستيلاء على الغنائم والكنوز والذهب في المعبد. ولكن الغضب لم يصبه وحده، بل أصاب جوليا أيضاً فقد عمد أحد المدافعين عن حقوق العامة والشعب ويدعى التربيون Tribune إلى تلاوة بعض الأبيات التي كان الشاعر فرجيل قد كتبها في الإلياذة Aniad وهي تقول: «وهكذا وفي سبيل أن يجري تورنوس Turnus خلف عروسه الملكية فقد أصبحنا نحن عديمي القيمة نسقط ونتبعثر في ميدان القتال دون أن يدفننا أحد ودون أن يبكينا أحد». ولم يكن من الصعب على السامعين ترجمة تلك الأشعار إلى الحقيقة الراهنة فإله الشمس المعبود في (هترا) Hatra كان قريباً للإله ايلاجابال الذي تقدسه جوليا وكان من المعروف أنها هي التي أعاقت الجنود عن التقدم نحو معبده ونهبه، ولكن عندما نقل الخبر إلى سبتموس على لسان أحد المخبرين تأكد من هو المعني بكلمة العروس الملكية وهكذا كلف هذا الاقتباس الكلاسيكي ذلك التربيون حياته.

لقد كان الحصار الفاشل لحصن (هترا) ضربة للهيبة الرومانية. فقد تحدت إحدى القلاع غير المهمة جيشاً يقوده الإمبراطور بنفسه شخصياً وبقيت تلك القلعة سالمة لم تمس. ومع ذلك فبعد أن أعدم ذلك التربيون تلميذ فرجيل، أعدم بضعة من الضباط الكبار الذين أثاروا التمرد الذي تبع الفشل في فتح القلعة.

وبعد أن انتقم سبتموس للإهانة والهجوم الذي أثير حول زوجته، عاد وهدأت طباعه وسمح للتعقل بأن يسود الموقف. فقد عَلَّمه خطؤه الفادح في (هترا) أن يتجنب الاحتكاك المباشر بإرادة الجنود، ولم تعد المياه إلى مجاريها بينه وبين جنوده إلا بعد أن أثبت لهم عنايته بهم وبمصالحهم. أما جوليا فقد تعلمت درساً أيضاً؛ فمع أنها رافقت زوجها في عدة حملات أخرى، إلا أنها لم تعد تتدخل في أعماله وسلوكه العسكري وعملياته القتالية. حتى أثناء حكم ابنها عندما تركت معظم الشؤون الإدارية بين يديها امتنعت تلقائياً عن التدخل في شؤون الجيش.

ورغم قصة القلعة المتمردة، إلا أن الحملة إلى مابين النهرين قد جلبت فوائد جمة إلى روما بعد أن أضافت ولاية جديدة للإمبراطورية وثبتت خطوط الحدود على نهر دجلة. وطوال حكم سبتموس ظل هذا الفتح مؤمناً مع وجود حامية تتألف من فرقتين للحفاظ عليه. ولم تتكرر حوادث الفوضى التي حدثت سابقاً وقد كان سبتموس مضطراً للتنازل عن (هترا) ولكن سرعان ما علم الجنود أنه من الحمق والتسرع أن يلقوا بالاً لمثل هذه القضايا. إذ إن الإمبراطور أظهر عدم الشفقة عند الحاجة ولم تقنعه أي توسلات بالتنازل عن رأيه وقد حدث أن توسل إليه أحد الخدم المتهم بذنب خرق الثقة التكرم بتخفيف عقوبته، وسأل الخادم الإمبراطور قائلاً: «ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني»؟ فأجابه الإمبراطور: «كان علي أن أتحمل النتائج» ثم أمر بإعدامه.

صحب سبتموس جيشه حتى أنطاكية، وهناك ترك الجيش وتوجه معه فريق صغير من رجاله وجوليا إلى مصر وكان لرحلته هذه غرض سياسي. فقد كانت مصر إحدى الولايات التي أيدت نيجر في الحرب الأهلية، ومع أن مقتل نيجر حَوَّلَ القضية لصالح سبتموس، إلا أنه كان لا يزال هناك بعض مثيري الفتن الناشطين هناك، وكانوا يؤلفون مصدراً من مصادر الخطر في مكان شديد الحساسية بالنسبة لسلامة روما، فمصر هي مخزن الحبوب الذي تعتمد عليه روما في تأمين القمح اللازم، فزيارة شخصية يقوم بها الإمبراطور سوف تعطي النتائج المرجوة لتأمين ولائها وكانت هذه الزيارة فرصة مناسبة لدراسة الأحوال الدينية والآثار القديمة التي تحتويها مصر.

ولقد صرح سبتموس فيما بعد أن تلك الزيارة كانت من أكثر الزيارات فائدة ومتعة له في حياته، فقد كان هو وجوليا متمتعين برؤية المناظر والآثار في الإسكندرية وهي أعظم مدينة في الإمبراطورية بعد روما، وزار الموصوليوم حيث حنطت جثة الاسكندر الكبير ووضعت في تابوت زجاجي ليراها الجميع. وكان سبتموس يعتبر الاسكندر أحب شخصية إليه من الشخصيات القديمة، وذلك بسبب غزواته العسكرية ونجاحه فيها بل بسبب النتائج التي تلت تلك الغزوات وهي اندماج الثقافة اليونانية بالثقافة الشرقية. وبعد زيارته لقبر الاسكندر أمر سبتموس بإغلاق القبر فقد ساءه رؤية الكهنة وهم يستفيدون مادياً من عرض ذلك الوجه المقدس أمام الجمهور، وقد كان يأمل اكتساب رضا وبركات الاسكندر بالمحافظة على وحدته وسكونه الأبدي دون تدنيس. فقد كان يؤمن بتأثير أرواح الموتى سواء بالخير أم بالشر. وحالما ركب السفينة في بيلوزيوم Pelusium راجعاً إلى روما أمر بتقديم قربان لروح بومبي الذي اغتيل في ذلك المكان قبل 250 عام تقريباً. وكان اسم القاتل لوشيوس سبتموس وهو أحد أفراد أسرة الإمبراطور ولكن قرابته له بعيدة جداً.

لقد حضر سبتموس وزوجته مناسبة مهمة عند الاحتفال بطقوس الإله سيرابيس Serapis وكان هذا إلهاً اخترعه خيال بطليموس، وهو أحد قواد الاسكندر

عندما استلم حكم مصر بعد تقسيم أملاك الاسكندر بين قواده وكان غرضه من هذا توحيد رعاياه اليونانيين والمصريين تحت عبادة إله واحد ودين مشترك. فقد كان سيرابيس Serapis هذا حائزاً على صفات يونانية ومصرية في الأساطير. ويُمثَّل بشكل رجل ملتحٍ يشبه أفلاطون ولكن عبادته وطقوسه تشبه طقوس اوزيريس. وكانت ايزيس تؤدي دوراً لا بأس به في تلك الطقوس وهي التي كانت تدعى زوجة اوزيريس فقد كانت الصلوات تبدأ عند الفجر عندما يزال القناع عن وجه التمثال وتبدأ التراتيل لإيقاظ الإله من النوم. وكان أحد الكهنة يوقد النار على المذبح ويسكب الماء من نهر النيل قبل أن يلبس التمثال الملابس الفاخرة والمجوهرات، وكانت هذه الأعمال تجري يومياً فهي ضرورية لاستمرار حياة الإله على الأرض.

وبالنسبة لجوليا التي ربيت في معبد ايلاجابال كانت تلك الطقوس الفخمة المعقدة ليست جديدة عليها ما عدا كون الطقوس تُؤَدَّى إلى تمثال بدلاً من الحجر الأسود النيزكي في حمص. ولكن بعد أن درست الأفكار الكامنة تحت تلك الطقوس أدركت مدى أهميتها لاسيما تلك الطقوس العائدة إلى ايزيس فقد أدركت بعد طول معرفتها بالأدب المعاصر أنها قد تذكرت المعنى الروحي الذي أطلقه ابوليوس على تلك الطقوس في آخر جزء من أجزاء كتابه الحمار الذهبي فهناك معنى من معاني الرفقة التي تكافئ المؤمن الذي يباشر الطقوس الغامضة، فقد وجدت الكلمات نفسها التي يتفوه بها أمام إيزيس «سوف أحفظ وجهك الإلهي وقوتك المقدسة مخزونة في سويداء قلبي بين بقية الأسرار، حتى أتمتع بتأملها إلى الأبد».

وبعد انتهاء الاحتفال في المعبد وتلاوة آخر فقرة من فقرات التراتيل كانت العادة التي اختصت بها مصر وحدها أن يبقى المصلون واقفين دون كلام أو صوت أو حركة، وهم يتعبدون بسكون ورهبة. ولقد أثر هذا السكون في الإمبراطور وزوجته وإنه بدأ يجمع كثيراً من الكتب التي استطاع إيجادها حول ذلك الدين الغريب في مصر، وقد تأسف الكهنة لحماسته البالغة حالما أزال الكتب وأخذها معه وإن كانت من تلك المكتبة الشهيرة في الإسكندرية التي أسسها البطالسة.

ومع ذلك فقد سببت تلك الزيارة الارتياح التام في مصر، فلم يكن الغرض من تلك الزيارة زيارة الأماكن الأثرية بقدر ما هو إعادة تنظيم الإدارة في تلك البلاد وتلك الولاية المهمة بالنسبة لروما. فمنذ تأسيس الإمبراطورية الرومانية كان الوالي الروماني في مصر يتمتع بسلطات مطلقة. إذ نظراً لقيمة صادرات تلك البلاد لم يسمح للسكان بالاشتراك في إدارتها سياسياً، ولكن سبتموس عمد الآن إلى تغيير هذه الخطة، فسمح بانتخاب مجالس في الإسكندرية والمدن الكبرى وأوكل إليها مراقبة الحكومة المحلية وأزال الحرمان الواقع على مصر بالنسبة لدخول المصريين مجلس الشيوخ في روما. وقد كان يأمل أن يكتسب بهذه

الإجراءات الإصلاحية الشكر والامتنان من قبل الشعب المصري، الأمر الذي سوف يقطع الطريق على بقايا عصبة نيجر وأعوانه وينمي الثقة والحب لأسرته. وقد نجحت هذه الخطة طوال حياة سبتموس.

وفي أوائل صيف عام 199 قام برحلة ترافقه بها جوليا إلى أعالي النيل جمعا فيها متعة الاستكشاف مع متعة الطيبات ووسائل الراحة في الحياة الحضارية في مصر. وكان القارب الذي سافر فيه الزوجان الإمبراطوريان واسعاً لهما ولأصدقائهما الذين رغبوا في مرافقتهما، ولعدد من الخدم لقضاء المصالح اليومية. وقد تبعهما أركان الدولة والمرافقون الآخرون في قوارب أخرى أو سيراً على الشاطئ. ولما كان القارب مربع الحافات فقد اعتمد الشراع المثبت على هبوب الرياح. وعند توقف الريح عن الهبوب أو تغير اتجاهها كانت بعض القوارب المجهزة بالمجاذيف تقطر القارب الكبير وتجره خلفها، فينساب بين حقول القمح المموِّن لروما، ويمر بأنصاب قديمة تدل على مدينة عريقة وجدت قبل ظهور روما إلى الوجود.

توقف المسافرون في طريقهم في عدة أمكنة لرؤية تلك المناظر الخلابة، ثم قاموا بزيارة إلى الأهرامات وعندما وصلوا طيبة وهي عاصمة مصر العليا ركبوا عربة كبيرة فشاهدوا تمثالاً ضخماً على مسافة من المدينة، كان هذا التمثال يمثل فرعوناً من الأسرة الثامنة عشرة، وكان اليونانيون يعتبرونه البطل الأسطوري ميمون ابن إله الفجر، لأنه عندما كانت أشعة الشمس في الصباح تلامس الحجر صدرت منه أصوات موسيقية تشبه صوت القيثارة، ويقال إن هذه الأصوات هي تحيات الابن لأمه الشمس. وقد أثار فيهم هذا التمثال تأثيراً عظيماً بسبب الأصوات الصادرة منه أكثر من تأثيره الفني، وقد حدث قبل نحو مئتي عام من الزيارة زلزال هدم الجزء العلوي من جسم ميمون هذا. أصدر سبتموس الأوامر بإصلاح التمثال فاستعاد ميمون شكله البشري ولكنه خسر صوته. وأثناء عمليات الإصلاح أصبح أول شعاع للفجر لا يلامس التمثال في الزاوية المطلوبة بل من زاوية أخرى أدى لتوقف التمثال الموسيقي عن الغناء.

استمر الركب في سفره بحراً بعكس تيار النيل، بينما ضاق ذلك الحزام من الأرض الخصبة حول النهر وبدأت التلال الصحراوية تقترب من مجرى النهر. وقد رأوا وحوشاً كثيرة وكبيرة في الماء، من التماسيح وفرس الماء، مما ذكر جوليا بالقصص التي كتبها إيليان عن أعاجيب العالم. وأخيراً وصلوا فيليا Philia وهي أقصى مدينة مصرية في الجنوب واقعة على جزيرتين فوق الشلال الأول في موقع أصبحت تحيط به بحيرة بعد بناء السد العالي أو سد أسوان الحالي. كانت هنالك عادة متبعة منذ أيام الفراعنة أن يرمي الفرعون في كل عام وفي شهر أيار تقدمة من الذهب والفضة في إحدى الكهوف لاسترضاء واستعطاف النهر العظيم. وعندما خضعت مصر لروما أصبح عريف مصر مسؤولاً عن هذا العمل السنوي وممثلاً للإمبراطور الروماني، وقد ابتهج الشعب المصري بأجمعه عندما رأوا

الإمبراطور الروماني بنفسه يشترك لأول مرة في هذه الحفلة التقليدية لاسترضاء واستعطاف نهر النيل العظيم وذلك في عام 199م.

رغبت الجماعة في استئناف السير إلى أعالي النيل وزيارة بلاد الحبشة المجهولة تماماً والمغلف تاريخها بالأساطير، وقد اختارها فيلوستراتوس لتكون وطناً لشعب الجمنوسوفستس Gymnosophists وهم من الحكماء العراة الأجسام الذين تعلم ابوللونيوس بينهم الحكمة، ولكن خاب أمل فيلوستراتوس عندما مرض الإمبراطور واضطر الجميع للرجوع دون زيارة بلاد الحبشة، وتفشى مرض الجدري في الإمبراطورية في ذلك العام. ونجت جوليا من المرض مع أن سبتموس قاسى الأمرين منه فقد تحسنت الوسائل الطبية تحت إشراف تعاليم غالين واستطاع الأطباء إنقاذ حياة الإمبراطور الذي كان يشعر بالضعف ولم يستطع معاودة نشاطه وحيويته السابقة، مما اضطره للبقاء أكثر من سنة في مصر، نظراً لحاجته إلى النقاهة أولاً ونظراً لرغبته في إتمام الإصلاحات الإدارية. وعندما قرر العودة جعلها على مراحل مريحة فأبحر أولاً إلى أنطاكية تلك المدينة التي كانت لا تزال تشعر بحالة من الخزي والعار بعد أن ساعدت نيجر وخسرت بذلك مركزها كعاصمة للولاية عقاباً لسكانها، وقد تشجع السكان عند زيارة سبتموس ثانية ورجوا منه العفو والغفران فأعلنهم أن العقاب قد زال عن المدينة بناء على رغبة ابنه انطونيوس، ولكن الحقيقة أن هذا العفو قد صدر من جوليا وليس من ولد في الثالثة عشر من العمر. فقد كانت جوليا مولعة بتلك المدينة وجعلتها مركزاً لإقامتها فيما بعد في أواخر حياتها، ولقد شجع هذا التصريح إيجاد شعبية وحب وولاء لذلك الطفل الذي كان والده حريصاً على تقديمه للرأي العام كولي عهد للإمبراطورية، وفي عيد السنة لعام 202م أعلن اسمي القنصلين القادمين لتلك السنة فكانا الإمبراطور بنفسه وابنه الأكبر.

ولما أصبحت وظيفة القنصل اسمية أكثر منها فعلية ولم تكن لتحوي أي مسؤوليات من أي نوع، لذلك لم يجد سبتموس أي معارضة في تعيين ابنه الأكبر قنصلاً في هذه السن المبكرة من الطفولة. ولقد قام ماركوس اوريليوس العمل نفسه عندما أعلن ابنه كومودوس قنصلاً، ولكن كومودوس كان أكبر بسنتين من ابن سبتموس هذا عندما عين في ذلك المنصب، وكان قد لبس العباءة الأرجوانية وهي العلامة الرسمية على وصوله إلى سن البلوغ والرشد. وبرفع ابنه الطفل إلى ذلك المركز أعلن سبتموس عن الامتيازات التي رغب أن تتمتع بها أسرته. فقد تحدى التقاليد في أنه لم يعقد حفلة التنصيب في روما بل في أنطاكية، وهي مكان مناسب للاحتفال بتدشين عهد تلك الأسرة التي سوف تحكمها الأميرات السوريات.

وبعد وقت قصير عاد الإمبراطور إلى روما حيث احتفل بانتصاراته على البارسيين وانتهاء حروبه معهم احتفالات اتسمت بالإسراف، وقد اقتُرِحَ عليه أن يُجري الاحتفالات بالأساليب التقليدية، حيث يلبس الإمبراطور ملابس الإله جوبتر

ويركب عربته إلى تلة الكابتول وحوله جنوده يصرخون «عاش المنتصر» ولكنه رفض هذا الشرف خوفاً من أن يسبب له الآلام أثناء وقوفه طوال الوقت في العربة فهو مازال يعاني من نتائج الجدري وأصابه نوع من داء النقرس وآلام في المفاصل، ولذلك لم يمش بأي موكب ولكنه أمر ببناء قوس نصر تذكاري نقشت عليه صور تمثل انتصاراته. وقد اختار موقع التمثال في المكان الذي حلم أنه رأى بيرتناكس يسقط به عن حصانه ويمتطي هو الحصان نفسه بدلاً عنه ولا يزال هذا القوس موجوداً في روما ويعرف بقوس سبتموس سيفيروس.

obeikandl.com